سينما

خريف التفاح للمغربيّ محمد مفتكر

رؤية بصرية مميّزة في كتابة ركيكة

يعالج المغربي محمد مفتكر تيمات تناولها سابقا، في جديده «خريف التفاح»، الذي يعاني ركاكة في الكتابة رغم رؤيته البصرية والفنية المميزة

محمد هاشم عبد السلام

تتّسم أفلام المغربي محمد مفتكر (1965)، على قلّتها، بالدقّة والاعتناء جيداً بالتفاصيل. في جديده «خريف التفاح»، حاول، وإنْ على نحو مُغاير، التطرّق إلى مواضيع وتيمات رئيسية لفيلميه الروائيين السابقين، «البُراق» (2010) و«جوقة العميين» (2015): الأب والسلطة الأبوية والمجتمع الذكوري. هذه حاضرة بشدّة في «خريف التفاح»، بل تكاد تكون محوره الرئيسي.

تكمن المُعضلة المُزمنة في السينما العربية في كتابة السيناريو والحوار، وفي المعالجة ورسم الشخصيات، وهذه حاضرة في «خريف التفاح». أحياناً كثيرة، تبرز عندما يكون المخرج هو نفسه كاتب السيناريو، فتصبح المشكلة أكبر وأكثر تعقيداً، ما يدفع إلى التحدّث عن بديهيات. مثلاً: لا تعني دراسة الإخراج واشتغاله الجمع بينه وبين مهن أخرى احترافية، ككتابة السيناريو. يكفي أنْ تكون الفكرة للمخرج، فيعهد بها إلى سيناريست حِرفيّ. هذه القضية قديمة قِدَم السينما، التي تجاوزتها في العالم إلى حدّ بعيد جداً. السينما العربية لا تزال تئنّ من هذه المعضلة، التي تضرّ مواهب إخراجية، تضيع جهودها هباءً بسبب ضحالة السيناريو والمعالجة وركاكة الحوار وضعف الشخصيات.

مشكلة محمد مفتكر مُركّبة على نحو جليّ في «خريف التفاح»، كاتباً ومخرجاً له، إذْ تُشتّت جهده بين الخروج بجديدٍ، فكرةً وموتيفات وإسقاطات وإيحاءات مُستهلكة؛ واجتهاد جدّي في صوغ قصّته وموتيفاته بجماليات بصرية آخّاذة، تنحو إلى الشاعرية والتأمّل، وتضفي على العمل قوّة وفلسفة. التراخي في إحكام السيناريو ومعالجته جيداً، والإفراط في شَعرنته وإكسابه جماليات قسرية، أفسدا تركيبة «خريف التفاح»، وأدّيا إلى نتاج فقير في الأفكار والخيال، وندرة التنوّع، وضعف التكوينات والأداء والحوار (أحياناً كثيرة)، وانعدام التطوّر تقريباً في أغلب فتراته، المُفتضحة قصّته منذ البداية.

هناك أيضاً بطءٌ غير مُبرّر في الإيقاع، وإطالة لا تتناسب مع القصّة والأحداث والشخصيات. هذا يصنع مشكلة أخرى في السينما العربية: لا رابط، ضرورياً أو حتمياً، بين بطء الإيقاع أو السرد البطيء للأحداث، والعمق الفكري أو التأمّل الفلسفي والجماليات الفنية. هذا النوع من الأفلام مقبلٌ من منطقة أخرى، ويستوجب طرحاً ومعالجة مغايرين كلياً، إذْ ينتفي الشرح ويكثر الإيحاء. والبطء ليس معناه أبداً عدم تطوّر الأحداث والدراما والشخصيات. الفرق بين هذا وذاك كبير وواضح بجلاء في «خريق التفاح». لذا، يسهل جداً أنْ ينفد الصبر، ويتسلّل الملل إلى المُشاهدين، خاصّة أنّ مدّته 120 دقيقة. تدور الأحداث في مجتمع بسيط، في قرية

> بطءٌ غير مُبرّر في الإيقاع وإطالة لا تتناسب والقصّة

جبلية يغلب عليه الطابع الريفي، بمفرداته وجمالياته الخالية من أيّ تكلّف، التي يسهل التفاعل معها والاقتناع بها، رغم عدم ظهور أحدٍ في هذه البيئة، باستثناء أسرة واحدة، مع انقطاع تام ومقصود، زمنياً ومكانياً، عن العَصر الحديث ومفرداته، وعن المجتمع المحيط بها.

تتكوّن الأسرة من الأب أحمد (سعد تسولي)، جامع الخردة والأجهزة الكهربائية، الذي يغيب كثيراً عن منزله. والدته (نعيمة المشرقي) عصب المنزل، وهي خير جدّة، وحامية ومُدافعة عن حفيدها سليمان (أنس الباجودي) أمام والده، القاسي عليه. تتفانى في رعاية زوجها، المُلقّب بالجنرال (محمد تسولي)، لتاريخه العسكري، المُقعد والعاجز عن الحركة والكلام. يُصدر أصواتاً تشبه الصراخ، بين حين وآخر. إنّه محور اهتمام الجميع وتقديرهم ورعايتهم.

إلى جوار الأسرة، تسكن الجارة (فاطمة خير)، التي تتمحور حولها قصّة الفيلم ومعظم أحداثه. لها شقيقٌ، عسكري متقاعد (حسن بديدا)، يدين بمعروف كبير للجنرال. هو مسؤول عن خدمة العائلة وتنقّلاتها بعربته الـ«كارو». يحمل الجنرال ويُساعده، كخادم أمين. بالإضافة إلى هؤلاء، يظهر المدرّس الابتدائي (أيوب اليوسفي)، بين حين وآخر. من خلالهم، يطرح محمد مفتكر مفردات الغواية والخيانة والرغبة والخطيئة والشرف، وتتقاطع الحكبة، برمزيّاتها (التفاح، وشجرة التفاح، والأفعى، إلخ.)، مع قصّة آدم وحواء، وبداية الخلق. ثمّ فكرة الأجيال والذاكرة وإرث الماضي وتبعاته على الحاضر.

رغم قلّة الشخصيات وبساطة الحبكة، ينشغل «خريف التفاح»، إلى حدّ الغرق، بقصّة الخيانة المُفترضة بين المُدرّس والجارة، طليقة أحمد، ووالدة سليمان، الذي قيل له إنّ والدته ماتت غرقاً وهو صغير. لاحقاً، يُدرك سليمان الحقيقة، ويفهم سبب قسوة والده غير المُبَرّرة تجاهه، ورفضه الاعتراف بنَسَبِهِ، ومُناداة سليمان له بـ« يا أبي». لا يهتمّ السيناريو بتوضيح مدى تورّط أو براءة الأم في الخيانة الزوجية المُفترضة من جانب أحمد. بالإضافة إلى تجاهل، أو عدم الاستغلال الجيّد لخيط مهم للغاية، يخص العلاقة الثلاثية بين الجدّ والأب والحفيد.

في «خريف التفاح»، مَشاهد فنية لافتة للانتباه وجيّدة، تُحسَب لمحمد مفتكر. كذلك، هناك رؤيته البصرية المتميّزة، المُتجلّية في أكثر من موضع، عبر اختياره مناظر وزوايا محدّدة للتصوير، وتوظيف الإضاءة في أكثر من مشهد. لكنّ الفيلم محتاج إلى مونتاج كثير، لحذف مَشاهد ضعيفة عدّة، أثّرَت سلباً على الجيّد منها. اختيار الممثلين موفّق، إلى حدّ بعيد. أما الأداء والإلقاء البارد الخشبي، فمردّهما غالباً إلى ضعف الحوار وركاكته. مع هذا، فإنّ اختيار أنس الباجودي في دور سليمان موفّق للغاية.

محمد مفتكر: إسقاطات وإيحاءات مُستهلكة
(فتحي بلعيد/ فرانس برس)

أفلام جديدة

■ I Care A Lot لجي بلاكسن، تمثيل روزاموند بايك (الصورة) وبيتر دنكلايج وديان ويست: مارلا غرايسن مُدرّسة تعمل لحساب أثرياء وكبار في السنّ، تتمكّن بفضلهم من عيش حياةٍ من الرفاهية. لكنّ أحد ضحايا الجدة يمتلك أسراراً كبيرة، وعليها أنْ تُتقن استخدام ذكائها ومكرها جيداً، إنْ ترغب في البقاء على قيد الحياة، في مواجهة تحدّياتٍ خطرة لم تكن تتوقّعها قطّ.

■ The Sleepover لتريش سي (الصورة)، تمثيل سادي ستانلي وماكسويل سيمكينس وكِنْ مارينو: في فترة حرجة من حياتهم، يكتشف شقيقان وشقيقتان، برعبٍ شديد، أنّ والدتهم كانت لصّة في السابق، وأنّها موضوعة في برنامج حماية الشهود. ذات يوم، تُجبر على البحث عن عملٍ جديد، ما يدفع أولادها الـ4 إلى تشكيل فريق متكاتف معها، في ليلة صاخبة للغاية.

■ Enola Holmes لهاري برادبير، تمثيل ميلّي بوبي براون (الصورة) وهنري كافيل وإلينا بونهام كارتر: إينولا أصغر أفراد عائلة هولمز، مولودة عام 1884. تُقيم مع والدتها أُدوريا، التي تربّيها بطريقة غير تقليدية بعيداً عن قواعد المجتمع القديم. بعد الاختفاء المفاجئ لوالدتها، تضطرّ الشابة إلى الاتصال بشقيقيها، وأحدهما محقّق مشهور، ظناً منها أنّه الأقدر على كشف وقائع الاختفاء. لكنّ أموراً كثيرة تحدث، وتُثير دهشة الجميع.

■ Red Dot لآلن داربورغ، تمثيل يوهانس كونْكي ونانّا بلوندل (الصورة) وأناستاسيوس سوليس: بعد وقتٍ قليل على بدء رحلةٍ أرادها فسحةً من الراحة والسكينة والاطمئنان، بهدف إعادة إحياء العاطفة الزوجية بينهما، يتعرّض زوجان فجأة لإطلاق رصاص من مصدر مجهول، في تلك البرّية القاسية، ما يدفعهما إلى الهرب بحثاً عن نجاة من موتٍ يظنّان أنّه قريبٌ جداً منهما.

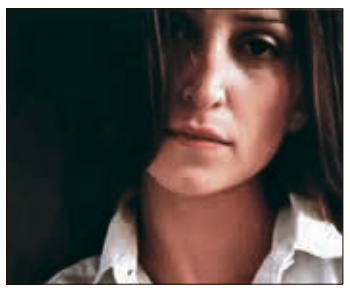

■ La Bete للودوفيكو دي مارتينو، تمثيل مونيكا بيسدّو (الصورة) وفابريزيو غيفوني ولينو موزيلا: لم يتمكّن ليونيدا من عيش فترة راحة، بعد إصابته باضطراب ما بعد الصدمة في أثناء خدمته العسكرية في القوات الخاصة، لأنّ ابنته تيريزا تُخطف، فيبدأ فوراً عملية بحثٍ عنها، لن تخلو من مغامرات ومطاردات وتشويق، فيكتشف عندها أنّ الغضب والضراوة لا يزالان يتفاعلان في ذاته وروحه بقوّة، وأنّ عليه الخضوع لاحقاً لعلاجٍ مختلف كي يتخلّص منهما.

فانيسا كيربي بإدارة كورنيل ميندروكزو

لمسة سينمائية أوروبية عن امرأة تتحطّم

محمد بنعزيز

هذا فيلم أميركي أخرجه هنغاري (كورنيل ميندروكزو) ومثّلت فيه بريطانية (فانيسا كيربي): «قِطَع امرأة» (تعرضه «نتفليكس» منذ 7 يناير/ كانون الثاني 2021). امرأة فاتنة تتحطّم. لا تستحقّ الشقاء الذي يُسلّطه عليها السيناريو (كايت ويبر). ينحت الفيلم حدثاً واحداً في نصف ساعة. هذا ليس منطق سينما هوليوود، بل لمسة سينمائية أوروبية للمؤلّف. بدأ الفيلم بكاميرا (بنجامن لوب) ترصد حدثاً حميمياً واحداً في فضاء داخلي من دون ملل، قبل انتقالها إلى العالم الخارجي. الفيلم مُركّب كنحت الـpuzzle. كلّ قطعة في مكانها الوحيد في اللوحة. فيلم هادئ، يكاد يكون صامتاً في ساعته الأولى. في هذه المدّة، يعرض ميندروكزو مقاطع مبنية بطريقة فنية، تظهر جهد تكثيف إخراج صُوَر قويّة. هذان النحت والبطء تتلذّذ بمشاهدتهما لجان تحكيم المهرجانات. تفوز كيربي بجائزة أفضل ممثلة، في الدورة الـ77 (2 ـ 12 سبتمبر/ أيلول 2020) لـ«مهرجان فينيسيا السينمائي».

يُمكن لكشف حِيَل بناء هذه الصُوَر ونحتها أنْ يقوّي الوعي بها، وبالتالي يُضعف متعة المُشاهدة. عادةً، يتجنّب المُخرجون كشف حِيَلهم وأساليبهم الفنية، عندما يتحدّثون في المهرجانات والإعلام. يحتفظون بالسرّ لأنفسهم، لأنّهم يُحصّلونه بعد تقصٍّ يستغرق زمناً. من دون معرفة مسبقة وعميقة بالأساليب الفنية، يفشل الناقد في ملاحظتها عند مُشاهدته فيلماً.

جاء تتويج الممثلة فانيسا كيربي في مرحلة عطاء كبير بالنسبة إلى الأفلام التي تصوّر نساءً تجاوزن مرحلة الشباب، ويعشن مرحلة انتقالية على عتبة الأربعين. يُستخرج الأفضل من جسد الممثلة. يُظهر الجسد محتوى التواصل، أي إحساسها وموقفها مما وممن حولها. في بحثٍ يهدف إلى فهم قوّة حضور الجسد لدى الممثلة البريطانية، تظهر أنّها ابنة طبيب جرّاح، متخصّص بتشريح الجسد، الذي يعمل عليه طويلاً.

مارثا امرأة وحيدة في بيئة باردة. تتأمّل أطفالاً، ثم تتأمّل بذرة التفاحة التي تقضمها. تضع البذرة في الثلاجة. هذه ليست بيئة ملائمة للتوالد. يحصل تدهور درامي، فيترك الموت بصمة هائلة في سلوك الأحياء. نظرات مارثا تائهة، تستنجد. تطلب أنْ تُترك وشأنها. ما حصل خسارتها هي، وهذه الخسارة لا تُعوّض. لكنَّ مَنْ حولها يريدون تسوية الحساب مع العدو. هي ترى أنّ أيّ انتقام أو عدالة لن يخفّفا ألمها. تُعبّر عن هذا التحدّي من دون ضجيج، وعن مشاعرها باقتصادٍ. ما كمية المعلومات التي يعطيها الجسد عن صاحبه؟ كمية هائلة. يحصل هذا بالفطرة، بالنسبة إلى البشر جميعهم. بالنسبة إلى الممثل، يجب أنْ تكون المعلومات، المُقدَّمة إليه، مُنتقاة بشكل فني لا فطري.

يقدّم «قِطَع امرأة» شخصيات قليلة. عادةً، كثرة الشخصيات تُشوّش المتفرّج، خاصة حين لا تكون أهداف تلك الشخصيات واضحة، أو حين تكون الشخصيات مرسومة بطريقة فضفاضة، تُحرّكها دوافع ضيّقة لا يُدركها المتفرّج. يُقدّم المخرج شخصيات قليلة في وضعيات سردية. شخصيات تنتبه وتتواصل وتقوم برد فعل، كما في الجُمل القصيرة والعنيفة للزوج، شون (شيا لوبوف). مثلاً: تُعبّر مارثا عن سعادتها، لأنّ أمّها اشترت سيارة له، فيُلاحظ أنّها اشترت له سيارة بلون داكن كروحها. سخرية قاسية تكشف، بالقوّة نفسها، شخصية مَن ينطق بها، ومن تتناوله. يُصوّر الفيلم هشاشة العلاقات الإنسانية، التي تنتقل فجأة من وضع إلى نقيضه. يُحسّن ميلاد طفل العلاقة بين الزوجين. غالباً، يكون الرجال الأدنى تعليماً أكثر حناناً وعطفاً وتسامحاً تجاه حبيباتهم. لكنْ، حين يغضبون، تسوء الأمور.

> مقاطع مبنية فنياً تظهر جهد تكثيف إخراج صُوَر قويّة

فانيسا كيربي: نظرات هادئة تستنجد (الإسّاندرا بينيد تّي/Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني